التاجر تورام- إيلي

( 2046 – 2004 ق.م)

قبل بدء الحديث عن التاجر تورام- ايلي لا بد من التطرق إلى موضوع التجارة بشكل عام فضلاً عن مكانة التاجر في عصر سلالة أور الثالثة بشكل خاص.

التجارة في عصر أور الثالثة

تُعد التجارة أحد المرتكزات الأساسية الثلاثة للنشاط الاقتصادي في بلاد الرافدين، اذ احتلت، منذ القدم، مكانة مهمة في حياة العراقيين القدماء تمثلت بتجارة المواد الأولية التي يفتقر العراقيون القدماء إليها وذلك؛ لعدم توافرها داخل البلاد، ومن تلك المواد الأخشاب بأنواعها والأحجار الثمينة والمعادن لا سيما الذهب والفضة والنحاس(1)، وكان من الواجب على العراقي القديم توفير السلع والمنتجات التي يفتقدها البلد لغرض سد النقص في المجتمع، من جانب، ومن جانب آخر، فهم بحاجة ماسة اليها سواء في حياتهم اليومية أو للأغراض الدينية في المعابد وللأغراض الدنيوية في القصور والمراكز الأخرى، وذلك كان يتم عن طريق التبادل التجاري أو المقايضة(2) ، بالمقابل كانت المنتجات الزراعية والثروة الحيوانية ومنتجاتها متوافرة بكثرة في بلاد الرافدين، فكانت التجارة تتم بتبادل تلك المواد مقابل جلب ما يحتاجونه من أخشاب وأحجار ومعادن، فضلا عن ذلك فقد عمد العراقيون القدماء إلى تصنيع بعض المواد وتصديرها مثل تصنيع الجعة (البيرة)، والصناعات الجلدية، والصوفية، والزيوت النباتية وغيرها(3).

نشطت التجارة بنوعيها( الداخلية والخارجية) في عصر سلالة أور الثالثة، وشملت نشاطاتها معظم مناطق الشرق القديم(4) ، إذ أسهمت سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، في رفع مستوى المعيشة في بلاد الرافدين، بل وساعدت على انتشار حضارة هذه البلاد إلى بلدان خارجية عدة(5) ، وقد بذل ملوك هذه السلالة جهوداً كبيرة لتعزيز النشاط التجاري والحفاظ عليه وتأمين طرقه من ناحية، ومن ناحية أخرى توسيع ذلك النشاط ليشمل المواد الأولية المختلفة المتوافرة في البلاد والمواد المصنعة منها كونها تُعد جانباً مهماً لأقتصاد دولتهم، فقد اهتم الملك أور- نمو (2112- 2095ق.م) منذ بداية حكمه بالنشاط التجاري، إذ يشير في مقدمة شريعته(6) ، إلى الهدف الأساس من التشريع وهو نشر العدل والحق بين الناس وإعادة تنظيم الحياة الاقتصادية بعد ان كانت الفوضى تعم البلاد، فيقول((....بعد ان كانت الحقول خاضعة (لسطوة) النسقوم(7) ، والتجارة البحرية خاضعة لسطوة مراقبي الملاحة ورعاة المواشي لسطوة ناهبي الثيران والأغنام والحمير غير ان أور- نمو المحارب الشجاع، ملك أور، ملك بلاد سومر واكد، استطاع بقوة الألة ننار سيد مدينة أور، وبأمر من الاله اوتو استطاع ان يوطد العدالة في البلاد وان يزيل البغضاء والظلم والعداوات)) (8).

يظهر اهتمام ملوك سلالة أور الثالثة وعنايتهم بالتجارة إلى الحد الذي دفعهم لإرسال حملات عسكرية لضمان سلامة الطرق التجارية وتهيئة أسباب تدفق المواد الأولية من المناشيء المختلفة(9) ، فقد ذكر لنا الملك شولكي في احدى ترتيلاته التي تعد اقدم ذكر مدون لهذا الملك حول اهتماماته بالنشاط التجاري وإقامة محطات تجارية على الطرق الخارجية وحماية القوافل التجارية(10) ، كما أشار إلى حرصه الشديد على تأمين وصول البضائع والسلع وذلك من خلال أشارته في الترتيله (B)، إذ ورد فيها (( ان القوارب يجب ان لا تبقى في المراسي)) (11) وظل ملوك سلالة أور الثالثة مهتمين بالنشاط التجاري فأصدروا القوانين والأنظمة والتعليمات الضرورية لضبط شؤون التجارة حتى غدت النظم التجارية العراقية القديمة مثلا يقتدى بها فأقتبست منه كثير من الحضارات العالمية الأخرى كما استخدمت الموازين والمكاييل الدقيقة لمعرفة الأوزان وقد تم العثور على الكثير من التماثيل الصغيرة والدمى مصنوعة من الحجارة على هيئة أسد أو بطة أو غيرها مثبت عليها وزنها تستخدم لهذا الغرض(12).

كما تفاخر الملوك والحكًام الذين قاموا بتثبيت الموازين والمكاييل ومنعوا التلاعب بها، فقد جاء ذلك على لسان الملك أور- نمو مؤسس سلالة أور الثالثة في مقدمة قوانينه:

)) في ذلك الوقت.... لاوما ومرد وكازالو... ثبتّ

السبعة....اقر السيلا البرونزي وثبت وزن المنا وثبت وزن

الشيقل الحجري والفضي بالنسبة إلى المنا)) (13)

تأتي الحبوب، كالشعير والحنطة، في مقدمة مواد التبادل التجاري، إلى جانب استخدام الموازين والمكاييل الدقيقة فضلا عن استخدام قطع من الذهب والفضة والنحاس محدودة الوزن على هيئة أقراص أو حلقات لتقييم الأثمان والأجور، وكانت البضاعة تنقل أما على ظهور الحيوانات، كالحمير والثيران والبغال أو بواسطة عربات خاصة تجرها الحيوانات، أو عن طريق القوارب والسفن الشراعية. إلى جانب ذلك كان في كل مدينة أماكن مخصصة يجتمع فيها الناس لإتمام معاملاتهم التجارية(14) ، عرفت بالأسواق والسوق بالاكدية (suqu) (15) مكان عرض البضاعة أو محلات العرض. فقد كانت الفسحات عند بوابات المدينة أو بعض الساحات العامة أو عند مداخل المعابد الرئيسة، إذ يجتمع الباعة والتجار والحرفيون يعرضون ما لديهم من مواد ومنتجات ويتبادلون شؤون معاملاتهم المالية ويعقدون الصفقات(16).

التاجر في نصوص أور الثالثة

يبرز من بين العاملين في التجارة ما يعرف بالمصطلح السومري (DAM-GAR) (17) الذي يعني التاجر وهو الشخص الذي امتهن مهنة التجارة أي بيع وشراء السلع والبضائع المختلفة، فيقال تَجَرَ يتجر تجراً أو تجارةً أي باع واشترى ويقال رجلٌ تاجرٌ والمجموع تُجار(18) ، ويرادفها بالاكدية ( (tamkaru(m)وهي مهنة سومرية الأصل(19) .

يُعد التاجر محور النشاط الاقتصادي بشكل عام، والتجاري بشكل خاص، في المدينة، وكان يتمتع بمركز اقتصادي واجتماعي مرموق، كان يقوم بدور الممول لغيره من الباعة لقاء ربح معين أو نسبة معينة من الربح، فضلاً عن قيامه بنقل السلع والبضائع وعقد الصفقات التجارية، ثم تطورت مهام وفعاليات التاجر ولم تعد تلك الفعاليات تقتصر على البيع والشراء بل شملت قرض المبالغ والتوسط في إنجاز المعاملات(20) فضلا عن ذلك فقد أدى التاجر دور الوكيل أو الأمين الحكومي (للدولة) في بعض الصفقات التجارية لاسيما عند استيراد بعض المواد من الخارج(21) ، وذلك لقاء أجور أو جرايات معينة، فضلاً عن منحه امتيازات وحقوق اجتماعية واقتصادية نصت عليها القوانين كإقطاعه أراضي ملكية وإعفائه من الخدمة المفروضة عليها والسماح له ببيعها والاستفادة منها(22) .

لقد أشارت النصوص المسمارية من عصر سلالة أور الثلالثة إلى عدد من الشخصيات التجارية كان من بينهم التاجر لو انليلا lu2-dEnlilla)) الذي ورد اسمه في التعاملات التجارية من زمن الملك ابي-سين (2028-2004 ق. م) في العاصمة أور، وكان يقوم بتسلم أنواع الملابس والأصواف والنسيج من مخازن معبد الإله ننار لغرض المتاجرة بها وشراء النحاس(23).

من التجار الذين عرفوا في عصر سلالة أور الثالثة تاجران هما اور-دموزيدا ( ur- dumu- zida) من مدينة اوما وأور دون(ur –dun) من مدينة نفر(24).

كما أشارت نصوص كل من مدينة أور ونفر إلى ان التجار من عصر أور الثالثة قد مارسوا مهمة الإقراض إلى جانب أعمال البيع والشراء وعقد الصفقات(25) ، وكان الإقراض يتم بمادتي الفضة والشعير، ولم يكن بالضرورة ان يكون التاجر نفسه مقرضاً، فقد أشارت نصوص مدينة نفر إلى ان المدعو لوكال –ازيدا (lugal – azida) كان مقرضا للفضة(26) ، كما عرف كل من ادا- كالا( adda- kalla) وأور سين(ur- dsin) بانهما تاجران و مقرضان للفضة في آن واحد(27). فضلاً عن ذلك فقد زودتنا النصوص المسمارية من زمن سلالة أور الثالثة التي تم نشرها في العقدين الاخيرين من نهاية القرن الماضي من قبل الباحثين المختصين والذين من أبرزهم فالتر زالابرجر (Walther Sallaberger) (28) وستيفن جي كارفنكل(Steven.J. Garfinkle) وماير فان دي ميروب (Mare Van De Mieroop) باسماء تجار آخرين سجلت نشاطاتهم من أبرزهم التاجر سيأا(Si.A.a) والتاجر تورام- ايلي (turam-ili) (29) موضوع البحث.

إن التاجر سيأا(Si.A.a) والتاجر تورام- ايلي (turam-ili) كان موضوع المناقشة في كتابات الباحثين والتي اعتمدوا فيها على المصادر المسمارية التي تُثبت وتُظهر نشاط التجار والتي نادراً ما تزود وتعطي الكمية الكبيرة من المعلومات حول تجار محددين وكان الباحث مايرفان دي ميروب الذي أظهر هذه المسألة من خلال نشره لأربعين نصاً من أرشيف لتاجر من عصر أور الثالثة وهو تورام – ايلي موضوع البحث(30).

التاجر تورام- ايلي

تورام- ايلي شخصية عمل تاجراً (DAM - GAR) في زمن سلالة أور الثالثة، إلا ان اسمه من الصيغ الأكدية الشائعة في نصوص أور الثالثة، وقد اقترن اسمه بمهنة التجارة، وهو يعمل بصورة رئيسية بالقروض بالفضة في هذه السلالة، وقد اعتمد في عمله على كُتّاباً ومسجلين اعتمدوا تقاويم مختلفة باختلاف التجار الذين يتم التعامل معهم أو باختلاف المدن التي تمت صياغة الاتفاق فيها(31).

يتألف اسم تورام – ايلي من كلمتين (turam) و(ili)، إذ إن الكلمة الأولى (tu-ra-am) من المصدر (rmu) بمعنى يحب أو محبوب(32). والكلمة الثانية ((ili التي غالباً ما تكتب مع أسماء الأشخاص بالمقطعين(i3-li2) هي كلمة أكدية تعني سيدي، الهي(32)، إذ إن (il) تعني (إله) في حالة الرفع و (i) ضمير ملكية متصل للشخص الأول المتكلم الـ(ي)(33)، وعليه يكون معنى الاسم ((سيدي محبوب)).

احتل تورام- ايلي دوراً بارزاً ومهماً في تنظيم التجارة والتجار في عصر أور الثالثة, وتحديداً في عصر آخر ثلاثة ملوك لدولة أور الثالثة ( امار- سين, شو- سين, ابي- سين) (34) ويبدو ذلك واضحاً من خلال دوره في تحديد وتخصيص حسابات الميزانية (nig2-ka9-ak) وحسابات رأس المال (sag-ni3-ga) أو ما يعرف بالوقت الحاضر حسابات الميزانية أو رأس السنة المالية (nig2-ka9-ak) (35) وقرأت قديماً (nig2-šid-ak) وتعني حسابات أو تصفية حسابات(36) ويقابلها بالاكدية (nikkassu) (37)  وقد أعطاه ذلك مكاناً مركزياً في مجتمعه التجاري في دولة أور الثالثة, فضلاً عن ذلك كان يتعامل مع الصفقات والتعاملات التجارية العديدة، إذ قام بنقل البضائع والسلع من مدن أور والوركاء(38)واي - سكدانا(39) المجاورة لمدينة نفر.

ظهر أسم تورام- ايلي في أحد النصوص المسمارية المنشورة والتي تمت دراستها من الباحث مارك فان دي ميروب (Mark Van De Mieroop) بانه (ugula dam-gàr) أي (المشرف على التجار أو الناظر على التجار) (40),أي انه اتخذ منصباً في السلطة وبين التجار في مجتمعه, وكان مسؤولا عن وضع الحسابات للتجار وتنظيمها تحت مراقبته(41)، إذ إن النشاط التجاري كان من مسؤولية الدولة آنذاك, من حيث المستلزمات التي تحتاجها التجارة من رؤوس أموال ومواد وسلع ومنتجات وشروط حماية الطرق التي لم تتهيأ الا من قبل الدولة, لذلك نشط ممثلوها من التجار في ظل هذه الأعمال(42), ويظهر من ذلك ان التجار كانوا يعتمدون على الاعتراف الذي تظهره الدولة لهم(43) نظراً لكون التجارة عملاً اختصاصياً ومهماً يحتاج إلى مهارة ومعرفة بشؤونها وأعمالها, لذلك أوكلت الحكومة شؤونها ونشاطاتها التجارية إلى مجموعة من هؤلاء التجار يقومون بإدارة أعمالها التجارية تحت أشرافها المباشر, بالمقابل تمتعوا بامتيازات وحقوق اجتماعية واقتصادية تفوق أصحاب المهن الأخرى(44) كما كان هنالك تفاوت في مستوى التجار, ويدخل في ذلك حق الوراثة، إذ إن التجار احياناً ما يحصلون على الألقاب بواسطة حقوق الوراثة, ولا سيما إن السلطة في تلك المرحلة كانت تعتمد النشاطات التجارية كونها نشاطات حساسة وذات أهمية في التنظيمات الاقتصادية المركزية للدولة، ويعتمد ذلك على التجار الذين يعملون بصورة مستقلة للإدارة المركزية للسلطة، كما ان الإشارات المكتوبة في الأرشيف تشير إلى ان تورام – ايلي شغل مدة ما لا يقل عن 18 سنة من زمن حكم الملك امار- سين، والملك ابي – سين، والأكثر وضوحا كان في زمن حكم الملك ابي – سين اخر ملوك سلالة أور الثالثة(45).

تورام – ايلي كان من عائلة تجارية فقد كان أبوه تاجراً عرف باسم (ba- za-a dam- gàr) إذ ذكرت طبعات الأختام الواردة في نصوص أرشيف تورام- ايلي والتي قام بنشرها الباحث رودولف ماير (Rudolf , H. Mayr) ان تورام- ايلي ابن بازا-آ التاجر(46).

كما ان تورام- ايلي كان بمثابة الوكيل أو الامين الحكومي يمتلك أكبر مؤسسة تجارية لها مكانتها في المجتمع أعطته الدولة السلطة على رفاقه في المهنة والعمل التجاري(47)، إذ يظهر بأنه الدائن والمؤتمن وعادة ما يكون مهتماً ومشغولاً بالصفقات والتعاملات التجارية مع التجار الآخرين، وقد أظهرت النصوص المسمارية المنشورة بأن تورام- ايلي تاجراً ناضجاً ابقى وحافظ على روابط العلاقة التجارية مع العوائل التجارية في عصر أور الثالثة(48).

فهذه العائلة(العائلة التجارية) كانت ذات تنظيمات مهنية مرتبطة ومتراصة وكانت تعمل تحت اشراف ومراقبة تورام- ايلي، وقد أسسوا ووضعوا نظاماً من مجموعات العوائل، وهذه العوائل عملت على إنها شريكة في العمل التجاري، لذلك فقد أظهرت النصوص المسمارية التي درسها الباحثون من المجموعة البابلية في جامعة يال (Yale) بان الأولاد والإخوان ظهروا على انهم شهود في التعاملات التجارية، وإن التجار الذين يشكلون التنظيم الفردي كانوا قادرين على العمل التجاري بالنيابة عن الآخرين(49).

العوائل التجارية

تم التعرف على أربع عوائل تجارية كانت تعمل في عصر أور الثالثة وذلك من خلال النصوص المسمارية التي نشرها الباحث كارفنكل وطبعات الأختام التي نشرها الباحث رودولف ماير للتاجر تورام ايلي ومن أهم هذه العوائل:

أولاً: عائلة زوزو التاجر ( zuzu dam- gàr) التي تتألف من أربعة أخوة وهم (šu- deštar , alatum, nur- ili, and šu - mama ) (50).

ثانيا: عائلة كور داسو التاجر ( qur-dasu dam- gàr): والتي تتألف من أربعة أخوة وهم (-and ilum- bani išme- ilum qur-dasu, ِadalal,) (51).

ثالثا: عائلة بوزور- ادد التاجر ( puzur4- dadad dam- gàr) والتي تتألف من أخوين هما (ili –rabi šu- deštar and) (52) .

رابعا: عائلة بور- ايلي التاجر: ( bur- ili dam- gàr) : والتي تتألف من ثلاثة أخوة هم (ilum- rabi nur- adad and (aŠki- liddin,(53).

ان الحضور والوجود للتجار في نصوص أرشيف تورام- ايلي يمكن توضحيه وتفسيره بواسطة عاملين:

العامل الأول: من خلال دوره البارز في تنظيم أعمال التجار وكان ذلك واضحاً عبر الاتصال مع أقرانه في المهنة.

العامل الثاني: ارتباط وصلة تورام- ايلي القريبة من السلطة السياسية آنذاك، اذ لعب دوراً في تحديد وتخصيص الحسابات المتوازنة لرأس السنة المالية، مما أعطاه مكانةً مركزية مهمة بين التجار في مجتمعه.

من خلال تحديد العوائل التجارية في أرشيف تورام- ايلي فقد ظهر ما لا يقل من جيلين من التجار ذات تنظيمات عائلية مهنية وان هؤلاء التجار تحت اشراف ومراقبة تورام- ايلي قد أسسوا ووضعوا نظاماً تجارياً من مجموعات العوائل(54).

كمثال على ذلك ان(šu- deštar) كان واحدا من أربعة اخوه والأخرين هم (التوم ونور- أيلي وشو – ماما) وهم جميعاً من أولاد زوزو(zu-zu) وكان زوزو تاجراً وتبعوه أولاده في المهنة والحرفة، وان المدعو (šu-mama) قد ادرج على انه تاجر ( dam- gàr) وان الإخوة المتبقين وهم (شو - أشتار و التوم ونور - أيلي) تم تحديدهم على انهم تجار وبذلك فأن زوزو وأولاده قد شكلوا عائلة تجارية تتألف من خمسة أعضاء (أب وأربعة أبناء) (55).

ظهر في مدينة نفر شخصية تحمل الاسم نفسه لأحد أولاد زوزو التاجر عرفت بـ(šu-mama) وقد عمل وكيلاً وممثلا على الصعيد المحلي لتورام- ايلي في العمل التجاري(56).

فيما يخص الأختام(57) ، التي ظهرت في النصوص المنشورة الخاصة بأرشيف تورام- ايلي هي أختام بعضها أرفقت مع ظروف وحافظة مختومة(58) ، كما ان الرقم الطينية كانت من الطين غير المفخور، وان بعضها لم تكن مختومة وبعضها الآخر يحمل طبعات أختام، ويمكن القول إن أختام أرشيف تورام- ايلي تختلف بنقوشها وكتابتها عن أختام سلالة أور الثالثة في عدد من صفاتها وخواصها مثلا نوع المشهد وطريقة النقش والكتابة التي تحمله ونوعية الحفر، وكل هذه المتغيرات تحتوي على بعض الانعكاسات للحالات الاجتماعية أو الاقتصادية للمالك(59)  باستثناء ختم واحد (الأختام المنشورة)، إذ إن مالك الختم يتبع اسمه لقبه، كما ان هذه الأختام لم تكن تحمل اسم مالك الختم فحسب بل تحمل كذلك الإشارة إلى دوره في المجتمع كما ان الصفة الدقيقة للعلاقة قد عكست حالته الاجتماعية، فضلا عن ذلك فأن الأختام من أرشيف تورام- ايلي تسمي الأب المالك للختم، وكشكل غير معتاد فأن أختام تورام- ايلي تظهر فيها سيطرة اللقب(dam- gàr)، اذ يظهر اما أمام اسم مالك الختم أو خلفه، كما أنها تحمل كذلك الإشارة إلى دوره في المجتمع، فإذا كان المالك تاجراً يظهر فيها ( dam- gàr) اما اذا كان صاحب الختم يعمل في خدمة العرش (السلطة الملكية) فأنه يحدد ويعرف بأنه عبد أو خادم الملك(ARAD2) (60).